مداخلة مقدمة للمشاركة في الملتقى الوطني بعنوان:

ظاهرة الإلحاد المعاصر عوامل التشكل.. وسبل المواجهة

المقام يوم 08 أكتوبر 2024م

عنوان المداخلة:

جدلية الأخلاق في الفكر الإلحادي الجديد

عروسي وليد

طالب دكتوراه

تخصص دعوة وثقافة إسلامية

جامعة الوادي

arroussi-walid@univ-eloued.dz

مقدمة:

عرفت المجتمعات البشرية عدة تغيرات جذرية عبر تاريخها الممتد لآلاف السنين، وكل فترة أو عصر تميز بانتشار أفكار ومظاهر معينة، وقد وصف مالك بن نبي القرن العشرين بأنه قرن اليهود والدولار والمرأة، وقد شهدنا على ذلك، كما يضيف جاسم المطوع في وصفه للقرن الواحد والعشرين أنه قرن الإلحاد والشذوذ الجنسي وتقنين استهلاك المخدرات؛ وهذا ما نراه شاخصا أمام أعيننا، فالعالم مقبل بخطى ثابتة على هذه الثلاث مهلكات.

الإلحاد الجديد أول هذه المهلكات التي تهوي بالعالم إلى طور البهيمية، والتخلي عن كل مقومات الإنسان المعتدل التي دأب على نحتها لعدة قرون، ويوجد شبه إجماع لدى علماء الأنثروبولوجيا أن الإنسان أينما ظهر وُجد معه الدين والفن، فلا يخلو مجتمع بشري منذ وجد الإنسان على ظهر هذه البسيطة من هذين الأمرين، حتى أن العلم يعتبر حديث النشأة مقارنة بالدين والفن، وعند المقارنة بين البشر والحيوان يمكننا إسقاط الفن إذا اعتبرنا تغريد العصافير ورسومات بعض الأسماك في قعر البحر فنًا، لكن الدين هو الثابت الوحيد في الفرق بين الإنسان والحيوان.

رغم أن الإلحاد ليس ظاهرة جديدة، أو طفرة لم يعرفها الإنسان من قبل؛ إلا أن الإنكار الكلي للإله والدين ومعه الأخلاق، وتعويض كل ذلك بالعلم أمر حديث النشأة، وهو ديدن الإلحاد الجديد الذي نحن بصدد الحديث عنه، وأي متابع لآراء كبار الملاحدة وفلاسفة الإلحاد يرى تخبطهم وتباين آرائهم فيما يتعلق بالماورائيات خاصة مواضيع مثل نشأة الكون، ونشأة الإنسان، ومصير الإنسان بعد الموت، والأخلاق، والقيم العليا في المجتمعات، وغيرها من الأسئلة الكبرى التي تبقى دون إجابات مقنعة، رغم تقدم كثير من كهنة الإلحاد للإجابة عن هذه التساؤلات، متجاهلين عن عمد قصور العلم التجريبي في الإجابة عن هذه الأسئلة.

يقول تعالى في محكم تنزيله واصفا فئة من عباده الضالين، محذرا لعباده المؤمنين ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ 19 سورة الحشر، فهذا وصف دقيق لملاحدة هذا الزمان؛ الذين نسوا الله وحاولوا استبدال مكانه تعالى عما يشركون؛ فقاموا بتأليه الإنسان والعقل، وانتهى بهم إلى الغوص في المادية والهبوط بالإنسان إلى أدنى درجاته وجعله مجرد حيوان ذو عقل يعيش على كوكب متوسط الحجم، كما يصفه أحد كبار الملاحدة الجدد، وفيما يلي من أسطر سيتم التطرق لماهية الإلحاد، والإلحاد الجديد بالخصوص وتبيان أنواعه، وصولا لنبش الأسس الفكرية التي تقوم عليها الأخلاق لدى هؤلاء الملاحدة الجدد، عرضا ونقدا، ثم الخروج بنتيجة حتمية لهذا الفكر المتطرف.

I- تعريف الإلحاد والإلحاد الجديد:

لا يعد الإلحاد ظاهرة حديثة منفصلة عن التاريخ البشري عموما؛ بل شهد العالم عدة موجات من الإلحاد عبر مختلف الحقب الزمنية، وأخر هذه الموجات الإلحادية هي ما ندعوه بالإلحاد الجديد، لذلك وجب التعريج على مفهوم الإلحاد وتطوره وصولا لهذه موجة الأخيرة التي هي محل الدراسة.

1- تعريف لإلحاد لغة:

يرجع للجذر اللغوي ل ح د: (لحَدَ، يَلحَدُ، لَحْدًا، فهو لاَحِدٌ، والمفعول مَلحُودٌ، لحَد الميِّتَ: دفَنه، واراه الترابَ، لحَد القبرَ: حفَره وعمل له شقًّا، لحَد الشَّخْصُ في الدِّين: كفر وأشرك بالله، طعن فيه، لَحَدَ السَّائِلُ: مَالَ عَنْ طَرِيقِ القَصْدِ، لَحَدَ السَّهْمُ عَنِ الْهَدَفِ: عَدَلَ عَنْهُ، لَحَدَ إِلَيْهِ: مَالَ، لَحَدَ الْحَاكِمُ: جَارَ، ظَلَمَ، لَحَدَ عَلَيْهِ فِي شَهَادَتِهِ: أَثِمَ.

إلحَاد: اسم مصدره أَلحَدَ: فعل ويقال: ألحدَ إلى/ ألحدَ عن/ ألحدَ في يُلحد، إلحادًا، فهو مُلْحِدٌ، والمفعول مُلْحَدٌ، أَلْحَدَ السَّهمُ عن الهدف: عَدَلَ عنه، أَلْحَدَ فلانٌ: عَدَلَ عن الحقّ وأَدخل فيه ما ليس منه، أَلْحَدَ إليه: مال، أَلْحَدَ في الحرَمِ: استحلَّ حُرمتَه وانتهكَها، أَلْحَدَ في الدِّين: طَعَنَ، أَلْحَدَ بفلان: أَزرى به وقال عليه باطلاً)[1]، ولا تخرج باقي المعاجم العربية عن هذه المعاني.

2- تعريف الإلحاد اصطلاحا:

يعرفه **سفر الحوالي** بقوله: (الإلحاد -بمعنى إنكار الخالق- مرض في القلب وعمى في البصيرة، وانتكاسة في العقل وشذوذ في الفطرة، ولهذا لا يصاب به إنسان سوي فضلا عن أمة سوية)[2]، وهو تعريف يتوافق مع النظرة الإسلامية لهذه الظاهرة.

أما **عبد الرحمان حبنكة الميداني** فيقول عنه: (هو انكار وجود رب خالق لهذا الكون، متصرف فيه، يدبّر أمره بعلمه وحكمته، ويُجري أحداثه بإرادته وقدرته. واعتبار الكون أو مادته الأولى أزلية، واعتبار تغيراته قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار ظاهرة الحياة وما تستتبع من شعور وفكر حتى قمتها عند الإنسان، من أثر التطور الذاتي في المادة)[3]، وقد ربط الميداني بين نظرية التطور والإلحاد، وجعل كل إيمان بها أو بأزلية الكون فعل إلحادي.

يمكن تلخيص معنى الإلحاد في إنكار وجود الله.

3- الإلحاد في القرآن:

ورد لفظ الإلحاد في أربعة مواضع من القرآن الكريم وهي:

1- معجم المعاني الجامع، تم الاطلاع عليه يوم 2024/6/19م، على الرابط: https://2u.pw/JULRdl0f .

2- سفر الحوالي، أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية، دار منابر الفكر، ط1 2010م، ص 125.

3- عبد الرحمان حبنكة الميداني، كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم دمشق سورية، ط2 1991م، ص 433.

– أولها في سورة الأعراف في قوله تعالى: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" الآية 180، قال **ابن كثير** في تفسير هذه الآية: (قال **العوفي** عن **ابن عباس** في قوله تعالى: {وذروا الذين يلحدون في أسمائه} قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله. وقال **ابن جريج** عن **مجاهد** {وذروا الذين يلحدون في أسمائه} قال اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، وقال قتادة يلحدون يشركون في أسمائه. وقال **علي بن أبي طلحة** عن **ابن عباس**: الإلحاد التكذيب: وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر)[1]، ولم يورد المفسر معاني خارجة عن المعنى اللغوي المذكور سلفا.

– ثانيها في سورة النحل في قوله تعالى: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ" الآية 103، وجاء الإلحاد هنا بمعنى الادعاء والافتراء.

– ثالثها في سورة فصلت في قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" الآية 40، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة وغيره هو الكفر والعناد)[2]، وقد أضاف ابن كثير معنى العناد زيادة على الكفر في تفسيره للإلحاد في هذا الموضع.

– رابع موضع جاء في سورة الحج في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" الآية 25، قال **ابن كثير** في تفسير هذه الآية: (والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى يهم، ولهذا عداه بالباء فقال: {ومن يرد فيه بإلحاد} أي يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار: وقوله: {بظلم} أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج عن ابن عباس هو التعمد، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: بظلم بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله، وكذا قال قتادة وغير واحد. وقال العوفي عن ابن عباس: بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل، فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم، وقال مجاهد: بظلم يعمل فيه عملاً سيئا، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه... وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس في قوله: {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم} قال: تجارة الأمير فيه. وعن ابن عمر: بيع الطعام بمكة إلحاد. وقال حبيب بن أبي ثابت: {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم} قال: المحتكر بمكة، وكذا قال غير واحد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري، أنبأنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان عن يعلى بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه

1– إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، نوبليس انترناشونال بيروت لبنان، ط 1 سنة 2011م، مجلد 10، ص2167.

2– إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مجلد 21، ص 4608.

وسلم قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد» وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس في قوله الله: {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم} قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مع رجلين: أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم} يعني من لجأ إلى الحرم بإلحاد، يعني بميل عن الإسلام، وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد)[1]، وأضاف **ابن كثير** معاني جديدة للإلحاد في تفسير هذه الآية؛ وهم بيع الطعام واحتكاره وتجارة الأمير بمكة، والردة عن الإسلام، والشرك وعبادة غير الله بمكة، إضافةً للمعاني السابقة المتمثلة في الظلم المتعمد والميل.

4- الإلحاد في الثقافة الغربية:

(يستمد الإلحاد (Atheism) تسميته في الثقافة الغربية من الجذر اللاتيني (ATHEOS)، وهو مصطلح مركب من (A) بمعنى النفي أو لا، و (THEOS) بمعنى الإله، وتكون الترجمة الحرفية لهذا المصطلح إنكار الإله، أو نفي الإله، وتطلق على الشخص الذي لا يعتقد بالإيمان بالله، سواء نفى وجوده، أم لا)[2]، وتوجد عدة أنواع للإلحاد سيتم التطرق لها بالتفصيل فيما يأتي من هذه المداخلة.

أما (Atheist) الملحد فهو وفق الكاتب الفرنسي **إدموند أورتيجس**: (إن الشخص الملحد لا ينكر الله في حد ذاته وإنما ينكر مصداقية ما تقدمه له النصوص الدينية، وان نفيه يقع أساسا على أسباب أو عناصر المصداقية)[3]، من هذا التعريف نجد أن الملحد في الثقافة الغربية ثائر على الكنيسة، متمرد على تعاليمها، ويقصد بإلحاده التحرر من الكنيسة وسطوتها لا هربًا من جور الإله أو عدم التصديق بوجوده من الأساس.

5- الإلحاد الجديد (New Atheism):

(مصطلح صاغه الصحفي اللاديني **جاري وولف** في مقال له على مجلة "وايرد wired" البريطانية، بعنوان "كنيسة غير المؤمنين" سنة 2006م، ليصف المراكز التي يتبناها ملحدي القرن الواحد والعشرين، وليعبر عن موجة الإنكار الفكري لكافة المعتقدات الدينية من الإيمان بوجود الله ورسالات الأنبياء، والمقتضى السلوكي لها، بحيث يعتمد على العلم الحديث في تقديم حججها، بعيدا عن المذاهب والإيديولوجيا الفلسفية، والتي تمتاز بشخصياتها وأساليبها التربوية والتعليمية واستخدامها للتكنولوجيا الحديثة، بدافع العداء والهجوم

1- إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مجلد 16، ص 3492 إلى 3494، بتصرف.

2- فلاح عبد محمد الدليمي، الإلحاد الجديد في المجتمعات الغربية والعربية، مركز الأمة للدراسات والتطوير، نشر بتاريخ 2023/3/6م، تم الاطلاع عليه يوم 2024/6/24م، على الرابط: https://alummacenter.com/?p=3441، بتصرف.

3- زينب عبد العزيز، الإلحاد وأسبابه الصفحة السوداء للكنيسة، دار الكتاب العربي دمشق سورية، ط 1 سنة 2004م، ص 8.

اتجاه الدين بشكل عام والإسلام بشكل خاص)[1]، ويقصد بموجة الإنكار الفكري لكافة المعتقدات الدينية؛ كتابات ما يعرف بالفرسان الأربعة وهم (**سام هاريس** و**دانيل دينيت** و**ريتشارد دوكنز** و**كريستوفر هيتشينز**)، الذين شرعوا في مهاجمة الأديان عموما والإسلام خصوصا والتهكم على معتقداتهم عقب هجمات 11 سبتمبر سنة 2001م بنيويورك الأمريكية.

استعان أحد الفرسان الأربعة وهو **ريتشارد دوكنز**، بكلمات أغنية "تخيّل" للمغني الأمريكي **جون لينون** في مقدمة كتابه "وهم الإله" وهذه الأغنية تقول: (تخيل عالما بدون دين، لا انتحاريين، لا حملات صليبية، لا مؤامرة بارود، لا تقسيم للهند، لا حرب فلسطينية إسرائيلية، لا مذابح صرب-كروات-اسلام، لا اضطهاد لليهود كونهم قتلة المسيح، لا مشاكل في شمال إيرلندا، لا جرائم شرف لا إنجيلي بهندام لامع على التلفزيون الأمريكي يجز أموال السذج "الرب يريدك أن تعطي حتى الألم". تخيل أنه لا وجود لطالبان ليفجروا تماثيل أثرية. لا قطع للرؤوس بشكل علني ولا سوط على جلد أنثى لأن أحدا رأى بوصة منه...)[2]، هذه المقدمة توضّح موقف **دوكنز** من الدين، فهو يرى كل الشرور التي يقوم بها البشر منطلقها إنما يكون من الدين.

يعتقد أصحاب الإلحاد الجديد أن الإيمان الديني بالإله والديانات المختلفة أمر عفا عنه الزمن، ويجب تجديده واستبدال الدين بالعلم، وأن العلم والدين خطان متوازيان لا يلتقيان أبدا، فلا يمكن في رأيهم الجمع بين العلم والدين، بل يجب التخيير بينهما؛ إما الإيمان بالدين وترك العلم أو العكس الإيمان بالعلم والنظريات العلمية على حساب الدين والإله وكل ما من شأنه الربط بين الإنسان والقوى الغيبية، ويقول **دوكنز** في هذا الصدد: (...ما أؤمن به كمشتغل بالعلم وكمثال: "نظرية التطور"، فإنما أؤمن به ليس لأني قرأت كتابا مقدسا بل لأنني درست الأدلة. وهذا موضوع مختلف تماما، إن الإيمان بكتب التطور لا يأتي من كونها مقدسة. بل لأنها تقدم أدلة دامغة كثيرة ومسندة بشكل متبادل...)[3]، وهذا مثال حي على ما تقوم به الحداثة السائلة أو ما بعد الحداثة باعتبارها تيار فكري ينبذ المقدس، ولا يعترف بقداسة لأي شيء.

II- أنواع الإلحاد الجديد وأسسه الفكرية:

الإلحاد الجديد لا يعد منظومة فكرية كاملة ومتكاملة، بل هو مجموعة من التيارات الفكرية والاعتقادية التي تشترك في مسمى الإلحاد، لكنها متباينة فيما بينها في كثير من الأفكار والآراء، حتى فكرة إنكار وجود الإله؛ فمنهم من ينكره كليا ومنهم من يكتفي بالإنكار الجزئي، ومنهم ما لا يكترث بذلك وغيرهم، وفيما يلي سرد لأهم التيارات الفكرية المنضوية تحت لواء الإلحاد في هذا العصر.

1- أحمد هاشم عبد، الإلحاد المعاصر وانتشاره في المجتمع الإسلامي (رؤية في المفهوم المعاصر وطرق مواجهته)، مجلة التطوير العلمي للدراسات والبحوث، العراق، المجلد 3، العدد 10، سنة 2022م، ص 227، بتصرف.

2- ريتشارد دوكنز، وهم الإله، ترجمة بسام البغدادي، دون دار نشر، نسخة تجريبية، سنة 2009م، ص 4.

3- ريتشارد دوكنز، وهم الإله، ص 131.

1- أنواع الإلحاد الجديد:

قسم الكاتب **أليكس ماكفريلاند** الإلحاد إلى عشرة أقسام، وجمعها في كتاب بعنوان عشرة أنواع للإلحاد، شرح فيها كل نوع على حدى وكيفية التعامل مع هؤلاء الملحدين، وهم كما يلي:

أ. **المتشكك المتعلم**: ويقصد به الملحدين ذوي المستوى التعليمي المرموق، ومن يمتلكون ناصية العلم في مختلف التخصصات، وقد أورد مقولة **لفرانسيس بيكون** يقول فيها: قليل من العلم يبعد الإنسان عن الله، وكثير من العلم يقربه إليه.

ب. **المتشكك المجروح**: هو الشخص الذي جرح أو له خبرات سيئة في الحياة ويلوم الله على ذلك، بحجة أن الله سمح بأن يحدث له ما حدث، ولذلك يلحد كرد فعل على الألم الذي لحق به فهو لم يعد يثق بالإله.

ج. **المتشكك الخائف**: هذا النوع من الملحدين يظن بأن إيمانه بالله يجعله يتخلى عمّا يحب، وأن إيمانه يوقف عقله، وذلك نتيجة للصورة المشوهة للدين والإله التي يحملها هذا الشخص.

د. **المتشكك الواثق بنفسه**: الذي يرى أنه ليس بحاجة إلى إله في حياته، وأن حياته مثالية، ويتمادى في كبره لدرجة يظن فيها أن إيمانه بالله مزية يقدمها لله، وأنه لن يعطي هذه المزية دون مقابل مادي ملموس.

هـ. **المتشكك اليتيم**: شخص له مشكلة في مفهوم الإله، فتتبادر لذهنه أسئلة لا يجد إجابات مقنعة عنها، فيتخذ موقفا إلحاديا بسبب ذلك وينبذ الدين كليا، لدرجة أن يتوقف عن البحث عن الحقيقة ويكتفي بالإنكار.

و. **المتشكك المتساهل المتسامح**: هو شخص لا يفكر بعمق في أمر الإله والدين، ولا يكترث حقا بهذه الإشكالية، لذلك هو متسامح ويطلب التسامح من غيره، ويميل للحديث العقلاني المنطقي بعيدا عن العقائد والإيمان، فلا شيء يقنعه أو يهمه.

ز. **المتشكك الشهواني**: المنغمس في الشهوات والملذات، هذا النوع لا يلتفت إلى الجانب الروحي من الحياة أو الأسئلة الكبرى في الكون وغيرها، مجرد عبد لشهوته وسعيه الدائم هو تحقيق أكبر قدر من المتعة الحسية، وألحد حتى لا يوقفه شيء.

ح. **المتشكك الباحث**: الذي لا يرى نهاية لبحثه عن الحقيقة، فهو دائم البحث والحركة لا يستقر على أمر واحد، فما يقنعه اليوم قد لا يحقق نفس التأثير بالغد، لذلك جعل البحث عن الحقيقة عمله وحياته، وبالنسبة له الحقيقة طريق وليست هدف.

ط. **المتشكك الشمولي التوفيقي**: يعترف هذا النوع من الملحدين بأن جميع الأديان صحيحة، وأن جميع الآلهة حقيقية، فهو يؤمن بأي شيء وكل شيء معا.

ي. المتشكك المخلص: لما يؤمن به، فهو لن يغير قناعاته ولو توفرت كل براهين الدنيا على زيف معتقده، وصحة معتقد غيره، فهذا النوع ملحد مخلص لإلحاده ولا يهمه إن كان محقا أو مخطأ؛ بل يتمسك بما لديه وفقط.

2- الأسس الفكرية للإلحاد الجديد:

غالبا ما يرفع الإلحاد الجديد راية العلم في مواجهة الدين، ويعطي الأسبقية للنظريات العلمية المثبتة – حسب زعمهم- على حساب الإيمان، (بينما نجد أن الإنسان حيثما ظهر يظهر معه الدين والفن. أما العلم، فإنه حديث النشأة نسبيا.)[1]، لذلك فالإنكار الكلي للإله والدين هو خروج على الفطرة البشرية، ولم تعرف البشرية هذا الإنكار التام للدين والإله إلا في هذا العصر، وقاموا باستبدال الإيمان المتوارث، بمجموعة من النظريات العلمية التي هي محل جدل حتى عند أكثر الناس تمسكا بها، وفيما يلي سرد لأهم النظريات العلمية التي جعلها ملحدوا هذا الزمان بديلا لدين:

أ- نظرية التطور(Evolution):

تُنسب هذه النظرية لعالم الأحياء البريطاني **تشارلز روبرت داروين**، الذي أصدر كتابه "أصل الأنواع" سنة 1859م، -أثبت- فيه أن كل الكائنات الحية لها أصل مشترك، وأن كل كائن تطور بطريقة مختلفة عن الكائنات الأخرى، ومنهم من لم يسعفه الحظ فبقي بدائيا، ويمثل الإنسان ذروة هذا التطور؛ الذي كان في أصله قردا ثم دخل في سلسلة من التطورات وصلت به إلى ما هو عليه اليوم.

تزعم نظرية التطور أنه قبل ملايين السنوات، قام كائن أحادي الخلية في مكان ما من هذا العالم الشاسع، لا يُعرف له أصل أو صانع، وقرر أن يتكاثر ويتنقل ويتطور فتخرج من نسله كائنات أخرى استطاعت أن تتكيف وتتغلب على ظروف الحياة، فبدأت النباتات ثم الكائنات المائية، ثم البرمائيات ثم خرجت من الماء وتأقلمت مع الأرض الصلبة فنمت لها أطراف وأجنحة استطاعت فيما بعد الطيران والجري بسرعات أكبر[2]، فبقيت الأنواع التي تكيفت وانقرضت الأنواع التي لم تستطع التكيف، ومن هذه الأنواع التي نجت القرد؛ الذي يعد السلف الأول للإنسان.

لا تعطي نظرية التطور تفسيرا لظهور الكائن الحي الأول، بل تجعل ذلك مما يجب على معتنق هذه النظرية أن يؤمن به دون دليل قوي ومثبت علميا، فانطلاق الحياة فجأة بلا مقدمات ولا مسببات أمر غير مفهوم

1- علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ت محمد يوسف عدس، دار الشروق القاهرة مصر، ط 18، سنة 2021م، ص 78.

2- أنظر سيد أبو الفضل موسوي زاده، فاطمة أحمدي، دراسة ونقد نظرية التطور في تفسير الميزان، آفاق الحضارة الإسلامية، مجلد 24، عدد 2، سنة 2022م، ص 332، بتصرف.

عقلا، وهذه النقطة جعلت الكثير من العلماء والفلاسفة يرفضون هذه النظرية؛ لأنها تستوجب إيمان بها قبل تقييمها، فلا يمكن للعدم أن يخلق حياة من تلقاء نفسه.

الكثير من علماء الأحياء والأنثروبولوجيا يحكمون بزيف نظرية التطور وخطئها، وكل يورد أدلته وبراهينه على ذلك، ولعل أهم هذه الأدلة أن بعض الفصائل من الحيوانات لم يمكنها التطور أو الخروج عن سمات الفصيلة نفسها، فالسباع مثلا لم تتطور لتصبح قادرة على أكل العشب، فهي تموت جوعا ولا تصبح عاشبة، والخيول لم تتطور وتأكل اللحوم، كذلك الأسماك لم تتطور وتخرج من البحر للعيش المستمر على اليابسة، رغم وجود بعض الأنواع التي تقاوم الجفاف؛ لكن في المحصلة لم تستطع الأسماك أن تعيش على اليابسة وتنمو لها أطراف بدل الزعانف وتأكل العشب كالحيوانات العاشبة الأخرى، كما تزعم نظرية التطور.

ب– نظرية الانفجار العظيم (The Big Bang):

تعد هذه النظرية، أهم وأشهر النظريات التي تفسر بداية الكون بعيدا عما تقوله الأديان وخاصة منها الديانات السماوية؛ التي تفسر بداية الكون بالخلق حيث أن الله عز وجل قام بخلق الكون في ستة أيام، وهذا من المشترك بين الديانات السماوية التوحيدية التي تقر بوجود الله وأنه خالق للكون.

كان الاعتقاد السائد أن الكون سرمدي بلا بداية ولا نهاية، حتى جاء العالم البلجيكي **جورج لوميتر** سنة 1927م وطرح فكرة أن الكون له لحظة بداية وهي قبل 13،7 مليار سنة، حيث كان قبل ذلك كتلة غازية شديدة الكثافة والحرارة واللمعان، أطلق عليها اسم البيضة الكونية، وقد حدث بها انفجار عظيم بفعل تراكم الحرارة والضغط الشديدين دفع بالجزيئات الرئيسية المتناهية في الصغر للانصهار ببعضها البعض منتجة بذلك البروتونات والنيوترونات، التي تعد المكونات الأساسية لنواة الذرة، وبذلك وُجدت المادة كما نعرفها اليوم، وأعقب ذلك الانفجار تشكل المجرات والكواكب والأرض بعد ذلك.

في سنة 1929م أضاف العالم **ألفرد هابل** زخما لهذه النظرية، وقال إن الانفجار يبعثر المادة دون نظام لكن في حالة الانفجار العظيم فإنه أنشأ المادة، وأنشأ المجرات في نظام متكامل، وقد اكتشف هذا العالم وجود علاقة نسبية بين سرعة تحرك المجرات والمسافة بينها وبين الأرض؛ مما يجعل الأمر يبدو على أن كل شيء ثابت، إضافة إلى اكتشاف موجات كهرومغناطيسية تجوب الفضاء لا تنتج إلا عن انفجار عظيم حدث في لحظة ما في الماضي السحيق.

عارض عالم الفيزياء الشهير **ألبرت أينشتاين** نظرية الانفجار العظيم أول الأمر لكنه تراجع بعد ذلك، وقال بقصور النظرية وتنبأ بوجود منظمات تضبط حركة الأجسام في الكون، تم اكتشافها فيما بعد عن طريق التلسكوبات وسميت بالثقوب السوداء، وكل هذه النظريات والاكتشافات في سبيل اثبات أن الكون مستقل في سيرورته، وذاتي التوجيه والضبط؛ ما ينفي وجود خالق للكون ومسير له ذو إرادة مستقلة وقدرة على تغيير

الأحداث والتوازنات التي استقر عليها الكون، لذلك يعتمد الملحدون على هذه النظريات والكشوفات العلمية للتدليل على صدق رؤيتهم ورجاحة رأيهم.

جـ- نظرية الأكوان المتعددة:

ترى هذه النظرية أن الكون الذي نعرفه بكل مجراته ونجومه ونظامه، إنما هو كون واحد ضمن مجموعة من الأكوان المتوازية، ويذهب بعض العلماء لطرح فكرة أن الأرواح التي تغادر هذا الكون الذي نعيش فيه إنما هي تنتقل إلى كون أخر ببعد أخر وبقوانين فيزيائية أخرى.

تعتمد هذه النظرية على طفرة علمية في مجال الفيزياء تسمى الفيزياء الكمية، أو (Quantum Physics)، حيث أن هذه الفيزياء الحديثة التي ظهرت سنة 1900م على يد الألماني **ماكس بلانك**[1] تختلف عن سابقتها عند دراسة حركة الأجسام، فالفيزياء التقليدية تعطي نقطة واحدة لتواجد جسم ما في زمن معين، أي أن الجسم يكون في حيز مكاني واحد فقط في لحظة معينة، أنا الفيزياء الكمية فهي تثبت وتقر بتواجد جسم واحد في عدة أمكنة في لحظة معينة، وعند الربط بين الأمكنة التي يتواجد بها الجسم نحصل على موجة كاملة يتواجد فيها الجسم المعني بالدراسة؛ أي أن الجسم المعني يتواجد في كل الموجة في نفس اللحظة الزمنية، وعند اسقاط هذه النظرية على الكون؛ يصبح أمر الأكوان المتعددة المتداخلة والمتفاعلة مع بعضها مقبولا من الناحية النظرية.

تتقاطع نظرية الأكوان المتعددة مع بعض العقائد الهندوسية وعلى رأسها عقيدة تناسخ الأرواح، في الإقرار بأن الأرواح التي تغادر هذا العالم يمكنها الرجوع على شكل أخر، وتضيف احتمالية الانتقال لإكمال حياتها في عالم أخر، وهذا ما ينفي الروايات الدينية السماوية التي تنفي التناسخ في الحياة الدنيا، وتقر بوجود الموت والبعث والحساب، لذلك يعتمد الملحدون على هذه النظرية لإلغاء الحساب؛ واعتبار أن الحياة تستمر إلى ما لا نهاية ولكن في أكوان متعددة.

III- الأخلاق لدى الملحدين:

قد تتشابه أخلاق المؤمنين والملحدين وممارساتهم اليومية، ويشتركون في جانب كبير من القيم التي يؤمنون بها، لكن هذا التشابه في التصرفات ليس راجع للتشابه في الأسس الفكرية التي يبني عليها كل طرف منظومته الأخلاقية والقيمية، وفيما يلي من أسطر سيتم التطرق –عرضا ونقدا- للأسس الفكرية التي يبني عليها الملحدون أخلاقهم.

1- مفهوم القيم والأخلاق:

1- هيثم السيد، ياسر مصطفى، نظرية الكوانتم بين العلم والفلسفة: مناظرة أكاديمية، متون، المجلد 9، العدد 2، ص 424، بتصرف.

يحدث تداخل في مفهوم القيم والأخلاق ولا يسع أحيانا التفريق بينهما، لكن سيتم التطرق لكل منهما على حدى ثم التأكيد على الفريق بينهما.

أ- تعريف القيم:

يجدر الإشارة أولا إلى أن مصطلح القيم ذو منبت غربي، وكل شرح للمصطلح في المعاجم اللغوية العربية القديمة لا يعطي المعنى المراد من هذا المصطلح، وقد اشتغل علماء الأمة على هذا المصطلح وحاولوا تقريب المفهوم للأذهان، ومن بين هؤلاء العلماء **طه عبد الرحمان** الذي يعرف القيم فيقول: (المعنى الخلقي الذي يستحق أن يتطلع إليه المرء بكليته ويجتهد في الإتيان بأفعاله على مقتضاه، أي أنه المعنى الذي يجمع بين استحقاقين إثنين: استحقاق التوجه إليه واستحقاق التطبيق له)[1]، لكن يبقى معيار الاستحقاق مبهما فكيف نصنف الشيء على أنه يستحق تطبيقه أو لا يستحق؛ فهذا يعتمد كليا على مدى تأثير الثقافة السائدة في كل بيئة.

يمثل علم الأكسيولوجيا "Axiology"[2] العلم الذي يتناول القيم، والمصطلح مشتق من اللفظ اللاتيني "Axios" الذي يذهب في معناه لما هو ثمين أو جدير بالثقة، ويعتبر علم الأكسيولوجيا (علم الأخلاق أو علم القيم) الرافد الثالث لروافد الفلسفة الحديثة إضافة للأنطولوجيا والأبستمولوجيا وهما علما الوجود والمعرفة على التوالي.

في البيئة الغربية حيث نشأت القيم، خرج أحد الفلاسفة الألمان المدعو **فريدريك نيتشه** بإعلان صادم سنة 1882م زعم فيه "موت الإله" وأعطى نفسه مهمة محاربة الظلال التي ألقاها الإله على الأرض، عندما زعم **نيتشه** موت للإله أسقط معه منظومة الأخلاق المسيحية المستمدة من الدين، واراد ابتداع بديل للأخلاق المسيحية السائدة لعلمه أن المجتمع لا يستقر دون منظومة أخلاقية تضبطه؛ لذلك أصدر كتاب "في جينالوجيا الأخلاق" الذي تساءل فيه عن قيمة القيم، وأرسى أسس نقد القيم السائدة مما مهد لانقلاب في القيم وظهور معنى مختلف تماما عما هو سائد في تلك الفترة. الجينالوجيا مصطلح صاغه **نيتشه** ومعناه؛ البحث في الأصول التي تأسست عليها المفاهيم الفلسفية والقيم من أجل نقدها وإظهار زيفها لتغييرها.

يعرف **نيتشه** القيم فيقول: (إن وجهة نظر القيمة، هي وجهة نظر شروط البقاء والنمو بالنسبة للتشكيلات المعقدة للحياة داخل الصيرورة)[3]، وفي موضع أخر يقول **نيتشه** عن القيم: (القيم وتغييرات القيم تتناسب مع تزايد القوة الذي يحدد القيم. درجة الجحود وقدرة "الحرية" المعطاة للعقل هما اللذان يتجلى فيهما تزايد

1- طه عبد الرحمان، تعددية القيم ما مداها وما حدودها، جامعة القاضي عياض، مراكش المغرب، ط 1، سنة 2001م، ص 11.

2- وليد عروسي، تباين منظومات القيم وخطورة التخلي عن الدين، آفاق للعلوم، المجلد 9، العدد 2، ص 190.

3- محمد أندلسي، نيتشه وسياسة الفلسفة، دار توبقال للن وت، الدار البيضاء المغرب، ط 1، سنة 2006م، ص 69.

القوة)[1]، جعل **نيتشه** القيمة المركزية في منظومته القيمية التي أرادها بديلا للأخلاق المسيحية التقليدية "**إرادة القوة**"، وبذلك فالقيم بالنسبة **لنيتشه** هي كل مسبب يزيد من القوة، لذلك فمبدأ القوة وتحقيق إرادة القوة هو الهدف الأول للقيم وليس السمو الأخلاقي.

ب- تعريف الأخلاق:

يعرف **الجرجاني** الخُلق فيقول: (عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقًا سيئًا)[2]، وكل التعاريف الإسلامية[3] للأخلاق لا تبتعد عن هذا التعريف وتربط الخُلق بالطبع والسجية من غير فكر.

الأخلاق جزء أساسي من الدين، ولا يستقيم أي دين دون منظومة أخلاقية يرسخها في أتباعه، بالرغم من وجود متدينين ساقطين أخلاقيا وملاحدة على خلق حسن، لكن هذه الحالات هي الاستثناء لا القاعدة، وعند النظر للأخلاق في الإسلام نجد أن لها مكانة عظيمة؛ ففي حديث رسول الله ﷺ عن أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وفي رواية أخرى "صالح الأخلاق" رواه **البيهقي**، وفي حديث أخر عن أَبِي أُمَامَة الباهِلِيّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: "أَنا زَعِيمٌ ببَيتٍ في ربَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِراءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَببيتٍ في وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وإِن كَانَ مازِحًا، وَببيتٍ في أعلَى الجَنَّةِ لِمَن حَسُنَ خُلُقُهُ" رواه أَبُو داود بإِسنادٍ صحيحٍ.

ج- الفرق بين الأخلاق والقيم:

اجتهد بعض علماء الأمة في التفريق بين الأخلاق والقيم، وأحد هؤلاء الموريتاني **عبد الله بن بيه** فيقول أن: (الفرق بين الأخلاق والقيَم: أن الأخلاق تشمل الحسنة والسيئة أما القيَم فتختص بالحسنة)[4]، وهو تعريف مقتضب يجعل القيم هي الجانب الحسن من الأخلاق ويعارضه في ذلك الكثير من العلماء والدعاة على رأسهم **طارق السويدان** الذي يجعل القيم متعلقة بالفرد بينما الأخلاق متعلقة بالمجتمع.

أما حجر الزاوية في الفرق بين القيم والأخلاق فيكمن في العلاقة بالدين، حيث أن الأخلاق كلها نابعة من التعاليم الدينية، اذ أنه بالرجوع إلى مكونات الدين نجد أن لا دين يخلو من منظومة أخلاقية يحاول ترسيخها في أتباعه. أما القيم فقد ظهرت للوجود مع تطور الفكر الأوروبي الذي بُني على القطيعة مع الدين والانسلاخ من تعاليم الكنيسة، لذلك تمثل أخلاق كالرحمة والشفقة إحدى أسوء القيم الإنسانية، ويصفها

1- فريدريك نيتشه، إرادة القوة، ت محمد ناجي، إفريقيا الشرق للن وت، الدار البيضاء المغرب، د ط، سنة 2011م، ص 32.

2- علي بن محمد الشريف الجرجاني، معجم المعاني، دار الفضيلة، القاهرة مصر، د ط، سنة 2004م، ص 89.

3- للاستزادة أنظر ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص 11 وما فوق.

4- عبد الله بن بيه، منصة X (تويتر سابقا)، نشر بتاريخ 2013/09/14م، تم الاطلاع عليه يوم 2024/7/3م، على الرابط: https://twitter.com/Bin_Bayyah/status/401057850333466624 .

نيتشه في كتاباته بأخلاق العبيد، بينما السادة ينبغي لهم عدم التقيد بمثل هذه القيم التي ينبع منها الضعف والتخاذل إنما التقيد بإرادة القوة.

2- الأسس الفكرية للأخلاق لدى الملحدين:

الفكر الإلحادي عقيم في مسألة المرجعية الأخلاقية، وهذا واضح جلي للجميع، لكن بعض المفكرين الملحدين حاولوا إعطاء أسس غير دينية لبناء منظومة قيمية أخلاقية تكون بديلا للأخلاق النابعة من الدين، وفيما يلي بعض المنطلقات الفكرية للقيم الأخلاقية لدى الملحدين:

أ- الهيومانية Humanism:

الهيومانية أو الإنسانوية هو أحد المذاهب الفلسفية المنبثقة عن عصر الأنوار في أوروبا، فبعد القطيعة مع الكنيسة والدين؛ رأى الفلاسفة آن ذاك استبدال كل الثوابت والقيم السائدة في المجتمع بأخرى جديدة، وقد جعلوا الإنسان مركز الكون، بعد أن كان الإله قبل ذلك هو المركز، فأرادوا بذلك الانعتاق من تعاليم الكنيسة وسطوتها بنفي وجود الإله وعدم الإيمان بأي شيء صادر عنه، وجعل الإنسان بفكره وعقله هو المشرع والآمر والناهي.

اختلف مفكري النهضة الأوروبية في ماهية مركز الكون، إذ زعم **رينيه ديكارت** أن العقل هو المركز فقال مقولته الشهيرة "أنا أفكر إذا أنا موجود"، كما اقترح **جون جاك روسو** إرادة المجتمع أو الإرادة العامة كمركز؛ فهو يرى أن الإنسان يولد لطيف نقي محب للخير إلى يقوم النظام الطبقي في المجتمع بإفساده وجعله شريرا، فركز على المجتمع فإذا صلُح المجتمع صلحت الحياة، وقد عارضه **توماس هوبز** و**مونتيسكيو** في هذا الرأي، وجاء أخر قال بمركزية الدولة وهو **ماكس فيبر**، وزعم أن صلاح الدولة ومؤسساتها يصلح كل شيء.

كل هؤلاء المفكرين يزعمون بأن الإنسان هو مصدر الخير، وبالتالي مصدر الأخلاق المطلقة والقيم العليا، لكن كل منهم يرى من جهة مغايرة، فالذي يرى العقل والفكر مركز الكون فالعقل من خصائص الإنسان، ومن يرى أن المجتمع هو مصدر الأخلاق والقيم العليا؛ فالمجتمع في الأخير هو عبارة عن مجموعة من الأشخاص بينهم روابط اجتماعية، ومن يرى أنها الدولة عن طريق القانون؛ لأن الدولة هي مجموعة من المؤسسات يديرها أشخاص ذوو كفاءة، ويصدرون قوانين تكون هي الضابط للأخلاق، لذلك فهذا التيار يتفق في مركزية الإنسان وأنه مصدر الأخلاق والقيم العليا.

يزعم **سام هاريس** في كتابه "المشهد الأخلاقي" وهو أحد الفرسان الأربعة للإلحاد الجديد؛ فيقول: (التحرك عبر المشهد الأخلاقي يمكن تحليله على مستويات كثيرة —بدءًا من الكيمياء الحيوية وحتى الاقتصاد- لكن

فيما يخص البشر، فإن التغيير سيعتمد على حالات وقدرات الدماغ البشري..)[1]، فنجد **سام هاريس** في كتابه هذا يجادل على كون الأخلاق أحد المجالات العلمية، وأن العلم يمكن أن يجيب عن سؤال الأخلاق، بل وينبغي له ذلك، وأن العقل البشري هو من ينتج الأخلاق وهو من يستحسن ويُقبح، وبالتالي هو المرجع في نشأة الأخلاق، ويحاول تجاوز ارتباط الأخلاق بالإله ويجعلها مرتبطة بالبشر.

يضيف **سام هاريس** في كتابه سالف الذكر: (من المهم أن نؤكد أن تفسيرًا علميا للقيم الإنسانية –بمعنى، تفسيرًا يضع القيم بشكل حاسم داخل شبكة التأثيرات التي تربط حالات العالم بحالات الدماغ البشري– هو تفسير مختلف عن تفسير يقوم على مبدأ التطور. فمعظم ما يتألف منه رفاه الإنسان في اللحظة الراهنة يفلتُ من أسر أي حسابات داروينية ضيقة..)[2]، وهذا تكريس لمبدأ أن الإنسان هو مركز الكون ، وأن عقل الإنسان هو منبع كل شيء.

ب– الطبيعة Naturalism:

يُرجع هذا المذهب الفلسفي كل شيء إلى الطبيعة، ويجعل من نظرية التطور التفسير الوحيد للوجود البشري في هذا الكون، ويربط كل شيء بالداروينية، فالملحد الشهير **ريتشارد دوكينز** يقول في أحد كتبه: (من الممكن أن الحضارة البشرية بحد ذاتها احتضنت قنبلة استنساخ جديدة، الكيان ذاتي التضاعف من نوع جديد، المقلد، كما دعوته في كتابي الجين الأناني، الذي يتكاثر ويتصرف بأسلوب دارويني ضمن نهر الحضارة..)[3]، ويعتبر **دوكينز** هذا الجين الأناني أحد الوسائل المباشرة لتطور الحياة على الأرض.

المذهب الطبيعي لا يختلف كثيرا في هذه الجزئية عن المذهب المادي، فكلاهما يعتقد بالتطور الذاتي فأحدهما أرجعه للطبيعة، والثاني حدد المسؤول عن التطور وأرجه للمادة نفسها، فمنذ **كارل ماركس** الذي قال "لا إله والحياة مادة"، والمادة تدخل في تركيب كل شيء، لذلك فحتى الأخلاق وفق هذه النظرة يجب تقييمها، وإعادة ترتيب الأخلاق وفق أولوياتها لدى البشر، لذلك تم استعمال مصطلح القيم بدل الأخلاق لإعطاء الجانب المادي للأخلاق؛ التي هي بعيدة كل البعد عن المادة وقيمتها، لذلك أوجد **فريدريك نيتشه** منظومته القيمية التي أسماها إرادة القوة، فكل ما من شأنه أن يكبح جماح البشرية ويحد من قوتها؛ هي قيم العبيد بتعبيره، وكل ما يحقق إرادة القوة هي قيم السادة، فالسيد لا يجب أن يترك نفسه ضحية للأخلاق التي يستغلها العبيد لنيل تعاطف السادة.

1– سام هاريس، المشهد الأخلاقي، ت خلود عمر، مؤسسة أفكار بلا حدود، سنة 2018م، ص 9.

2– نفس المرجع السابق، ص 12.

3– ريتشارد دوكينز، النهر الخارج من عدن التصور الدارويني للحياة، ت مركز دوكينز، د ط، سنة 1995م، ص 90.

يقول الفيلسوف الملحد **مايكل روس**: (موقف علماء التطور المعاصرين إذن، أن البشر لديهم وعي أخلاقي –أي الإحساس بالقبح والحسن وبالنتيجة الشعور بالواجب الحكمي–؛ لأن هكذا وعي فيه منفعة إحيائية، الأخلاق هي تأقلم إحيائي لا يختلف عن اليد والقدم والأسنان)[1]، فالأخلاق إذا من وجهة نظر إلحادية هي مجرد تطور طبيعي للجنس البشري، لا تختلف عن باقي أطراف وأعضاء الجسم البشري.

3– نقد الأسس الفكرية للأخلاق لدى الملحدين:

يدعي الملحدون أن لهم أسس متينة تسند آرائهم ونظرتهم للحياة، لكن هذه الأسس التي يدعون وجودها هي نفسها محط جدل بين الملحدين أنفسهم، فالكثير من الفلاسفة الملحدين يقرون بعجز الفكر الإلحادي الجديد عن إعطاء أجوبة مقنعة على الأسئلة الكبرى في الحياة، وفيما يلي نقد للأسس الفكرية للأخلاق لدى الملحدين.

أ– نقد نظرة المذهب الهيوماني للأخلاق:

يعتقد أصحاب المذهب الهيوماني أو الإنسانوي أن إرادة المجتمع هي التي تضبط المجتمع وتقوده للازدهار والرفاه، لكن في التاريخ البشري كثير من النماذج حيث إرادة المجتمع هي من تقود للحرب والدمار، فالمجتمع النازي بقيادة **هتلر** في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين هو من دعم إبادة الغجر واليهود والأقزام وأصحاب العاهات، وهو نفسه من دعم وحرض آلة القتل الألمانية في حرب عالمية أتت على الأخضر واليابس في أوروبا، ولم تخمد إلا بعد أكبر مجزرة في تاريخ البشرية، الديموقراطية التي تعد أداة الشعب والمجتمع للتحكم في القرار السياسي للدول أفرز دول شديدة العنصرية تحظى بتأييد شعبي كما حدث في جنوب إفريقيا زمن الأبارتايد، ويحدث في فلسطين المحتلة؛ فـ–واحة الديموقراطية– في الشرق الأوسط هي نفسها أكبر كيان إرهابي تهدد استقرار العالم، والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى.

يُنسب للرئيس التشيكي **فاكيلاف هافل** قوله: (حينما أعلنت الإنسانية أنها حاكم العالم الأعلى، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعده الإنساني)[2]، لذلك فمكان الإنسان ليس مركز الكون فذلك مما لا يطيقه هذا الإنسان، لأن (الفلسفة الهيومانية ضحت أول ما ضحت بالإنسان وعادت لاعتبار الطبيعة هي المطلق وهي المرجع فهي فلسفة ذاتية الهدم..)[3]، لذا فالإنسان هو فاعل في هذا الكون ولا يمكنه أن يكون المركز فيه، فخصائص المركز أن يكون ثابتا لا يتغير، والإنسان الثابت الوحيد فيه أنه متغير.

1– مصطفى أسعد رسول، العجز الأخلاقي في الإلحاد، مجلة العقيدة، العدد 19، سنة 2019م، ص 48.

2– هيثم طلعت علي سرور، موسوعة الرد على الملحدين العرب، د دار نشر، د ط، مجلد 1، ص 13.

3– نفس المرجع السابق، ص 13.

لا يختلف الحال مع العلم أيضا، فالعلم الحديث أنتج وسائل لقتل البشر لم يرى لها العالم مثيلا؛ فمنذ **أينشتاين** الذي أرسى القواعد الصلبة لصناعة القنبلة الذرية، وحتى **أوبنهايمر** الذي جسدها على أرض الواقع، وصولا إلى القنابل الهيدروجينية القادرة على تدمير مساحات شاسعة، والتأثير على الكرة الأرضية كلها وإدخالها في شتاء نووي يذهب ببيئة الكوكب إلى نقطة قد لا تعود منها، وكذلك فعل العلماء الألمان باختراعهم لغاز السارين القاتل، والسوفيات الذين طوروه لإنتاج غاز الفي إكس؛ الذي يفتك بمدن كاملة بلمح البصر، فنجد أن العلم الذي يدعي الملحدين أنه قادر على إنتاج الأخلاق وضبطها هو نفسه قادر على إنهاء البشرية وإبادتها.

من جملة الانتقادات للمذهب الهيوميني ما أورده **عبد الله بن صالح العجيري** في كتابه "ميليشيا الإلحاد" قوله: (المشكلة أن الملاحدة اليوم يقدمون أنفسهم باعتبارهم "إنسانيون هيومانيون" ويبدون قدرا من الصلابة الأخلاقية في خطاباتهم حيال ما يعتقدونه صواباً وخطأً، دون أن يوضحوا القاعدة التي تتأسس عليها هذه الصلابة الأخلاقية، وإذا أرادو التوضيح أحيانا فإما أن يقعوا في إشكالية التبرير النفعي البراغماتي للأخلاق والذي يفقد القيم الأخلاقية قيمتها، أو يقعوا في تقرير نسبيتها مما يفقدها قيمتها المطلقة..)[1]، وهذا ما يجعل الملحد فاقد للقيم الأخلاقية مهما كان تبريره لها.

يقول **هيثم طلعت** في كتابه "كهنة الإلحاد": (إن الهيومانية توكيد على أن الإلحاد لا يصلح لتحليل ظاهرة الوجود الإنساني، وأن الإلحاد شيء والإنسان الروح والجسد شيء أخر تمامًا)[2]، وهي خلاصة من أحد أهم الشخصيات المعاصرة التي عالجت موضوع الإلحاد الجديد، وأمعنت في تفكيكه وتشريحه لإظهار زيغه وفساده.

ب– نقد نظرة المذهب الطبيعي للأخلاق:

ادعاء أصحاب المذهب الطبيعي أن الأخلاق هي مجرد تأقلم إحيائي لا تختلف عن الأطراف البشرية له الكثير من الانتقادات، (فإذا كانت الرؤية الداروينية هي الرؤية الصحيحة وكانت حتمياتها هي الأصل الثابت فلن يستوعب الإنسان أصلا فكرة حماية المعاق أو تقديم يد العون للضعفاء، بل إن تعقيم المعاقين –منعهم من الإنجاب– هو الحل الداروينى الأمثل والأوحد)[3]، ولا يمكن لأحد إنكار هذه الحقيقة، فالداروينية تقول أن البقاء للأصلح، والذي لا يستطيع مجاراة الحياة وتغيراتها لا بد له من الانقراض.

1– عبد الله بن صالح العجيري، ميليشيا الإلحاد، تكوين للدراسات والأبحاث، لندن المملكة المتحدة، ط 4، سنة 2020م، ص 149.

2– هيثم طلعت علي سرور، كهنة الإلحاد الجديد، ص 22.

3– نفس المرجع السابق، ص 21.

يقول **علي عزت بيجوفيتش**: (إن المساواة والإخاء بين الناس ممكن، فقط، إذا كان الإنسان مخلوقًا لله. فالمساواة الإنسانية خصوصية أخلاقية وليست حقيقة طبيعية أو مادية، أو عقلية..)[1]، فالطبيعة والمادية لا يمكنها تحمل فكرة المساواة أو أن جميع البشر سواسية، لأن الاصطفاء الطبيعي يحتم تفوق فئة على فئة، ويتيح للفئة الأعلى إفناء الفئة الأقل منها، فالنظرة المادية تحتم وجود فروقات بين البشر، وبالتالي فالمساواة لا تحصل إلا عند رؤية الإنسان ببعده الروحي، وبقاء الروح سر من أسرار الله في الكون هو ما يعطيها هذه الميزة، فلا يمكن الجزم بكبر روح على الأخرى، أو جمال روح عن أغيرها، فتبقى تلك الروح الغائبة عن العين وعن القياس؛ هي المشترك الوحيد بين كل البشر دون توفر القدرة على التمييز بين الناس على أساس روحي.

(ليست الأخلاق كما عرفها "الرواقيون" (الحياة في انسجام مع الطبيعة)، إنما هي على الأرجح ضد الطبيعة، بشرط أن تكون كلمة "طبيعة" مفهومة بمعناها الصحيح؛ والمقصود بالطبيعة عند **بيجوفيتش** "جميع الحقائق فيما وراء جوهر الإنسان، ومن ثم فهي تعني عالم الإنسان الدنيوي مشتملا على جسمه وذكائه وكل ما يتصل بهما"، وقد تساءل عالم الأخلاق الإنجليزي **ماندفيل** "ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري؟" وأجاب ببساطة: "لا شيء، بل لعلها تكون ضارة")[2]، والأخلاق من وجهة نظر طبيعية مادية مجرد عوامل كبح في طريق التطور المحتوم للحياة البشرية.

الحديث عن الأخلاق يقود حتما للحديث عن ثنائية الخير والشر، هذه الثنائية المترسخة في الوجدان البشري منذ بداية الخليقة، لكن من وجهة نظر مادية محضة فالخير والشر لا وجود لهما، فالمادة لا تفرق بين الخير والشر؛ لذا فيلسوف الوجودية **جان بول سارتر** يقول: (إن الوجودية تقول إن عدم وجود الله معناه عدم وجود القيم المعقولة كذلك، وعدم وجود الخير بصفة مسبقة قبلية à priori، لأن عدم وجود الله معناه عدم وجود وجدان كامل لا متناه يعقل ذلك الخير. هكذا يصبح القول بوجود الخير، أو بوجوب الصدق والنزاهة، قولا لا معنى له، لأننا نصير حيال وجود إنساني بحت لا دخل فيه لوجود الله أو قيم مصدرها الله)[3]، ونفس الفكرة عبر عنها الأديب الروسي **فيودور دوستويفسكي** على لسان إيفان أحد الشخصيات الرئيسية في روايته "الإخوة كارامازوف" قوله: (إذا لم يكن الله موجودا: فكل شيء مباح).

1- علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص 100.

2- علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص 192، بتصرف.

3- جان بول سارتر، الوجودية مذهب إنساني، ت عبد المنعم الحفني، مطبعة الدار المصرية، القاهرة مصر، ط 1، سنة 1964م، ص 24 .25

الخاتمة:

في ختام هذه المداخلة لا أجد نتيجة أحسن مما أورده **على عزت بيجوفيتش** في ختام الفصل الرابع من كتابه الإسلام بين الشرق والغرب المعنون بـ "الفصل الرابع: الأخلاق" يقول فيها:

1- الأخلاق كمبدأ لا توجد بلا دين، بينما الأخلاق العملية يمكن لها أن توجد في غياب الدين.

2- إنه لا يمكن بناء نظام أخلاقي على الإلحاد. ومع ذلك، فالإلحاد لا يبطل الأخلاق على الأقل في أدنى أشكالها، وأعني بذلك النظام الاجتماعي.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم مجلد 10 16 21.
- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق.
- أحمد هاشم عبد، الإلحاد المعاصر وانتشاره في المجتمع الإسلامي (رؤية في المفهوم المعاصر وطرق مواجهته)، مجلة التطوير العلمي للدراسات والبحوث، العراق، المجلد 3، العدد 10، سنة 2022م.
- جان بول سارتر، الوجودية مذهب إنساني، ت عبد المنعم الحفني.
- ريتشارد دوكنز، وهم الإله، ترجمة بسام البغدادي.
- ريتشارد دوكينز، النهر الخارج من عدن التصور الداروينى للحياة.
- زينب عبد العزيز، الإلحاد وأسبابه الصفحة السوداء للكنيسة.
- سام هاريس، المشهد الأخلاقي.
- سفر الحوالي، أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية.
- سيد أبو الفضل موسوي زاده، فاطمة أحمدي، دراسة ونقد نظرية التطور في تفسير الميزان، آفاق الحضارة الإسلامية، مجلد 24، عدد 2، سنة 2022م.
- طه عبد الرحمان، تعددية القيم ما مداها وما حدودها.
- عبد الرحمان حبنكة الميداني، كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة.
- عبد الله بن صالح العجيري، ميليشيا الإلحاد.
- علي بن محمد الشريف الجرجاني، معجم المعاني.

- علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ت محمد يوسف عدس.
- فريدريك نيتشه، إرادة القوة.
- محمد أندلسي، نيتشه وسياسة الفلسفة.
- مصطفى أسعد رسول، العجز الأخلاقي في الإلحاد، مجلة العقيدة، العدد 19، سنة 2019م.
- هيثم السيد، ياسر مصطفى، نظرية الكوانتم بين العلم والفلسفة: مناظرة أكاديمية، متون، المجلد 9، العدد 2.
- هيثم طلعت علي سرور، كهنة الإلحاد الجديد.
- هيثم طلعت علي سرور، موسوعة الرد على الملحدين العرب.
- وليد عروسي، تباين منظومات القيم وخطورة التخلي عن الدين، آفاق للعلوم، مجلد 9، عدد 2.

المواقع الإلكترونية:

- عبد الله بن بيه، منصة X (تويتر سابقا)، على الرابط: https://twitter.com/Bin_Bayyah/status/4010578503334666624 .
- فلاح عبد محمد الدليمي، الإلحاد الجديد في المجتمعات الغربية والعربية، مركز الأمة للدراسات والتطوير، على الرابط: https://alummacenter.com/?p=3441 .
- معجم المعاني الجامع، على الرابط: https://2u.pw/JULRdl0f .